تقرير حول اللباس في مدينة سلَميّة السوريّة

وتأثير المد الديني بعد عام 2011

ي.ح

شهدت مدينة سلَميّة السورية في سنوات الثورة تغيرات لافتة في سمة اللباس السائد، وذلك بفعل عوامل مختلفة أبرزها نمو التيارات الدينية المتطرفة مثل تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) وجبهة النصرة، وهو عامل لا يمكن فصله عن غيره، إلا أنه بالإمكان تمييزه في مدينة ذات أغلبية طائفية إسماعيلية، معروفة بالانفتاح وعدم التشدد.

تحمل الملابس دلالات ثقافية، وتشير إلى الهوية الاجتماعية، ويعد تغير سماتها أحد مظاهر التغير الاجتماعي بوصفه سلوكًا قد يكون نتيجة أو مسببًا لتغير البنى الاجتماعية، ما يجعل لتقصيه أهمية كبرى في توثيق آثار السنوات العشر الأخيرات على المجتمع السوري، خاصة في مدينة ذات أقلية دينية تحمل قيمة دلالية من مثل سلَميّة.

يهدف هذا التقرير إلى تقصي تغير طريقة اللباس في سلَميّة، متأثرًا بعامل المد الديني المتطرف، مع توخي عدم فصله عن العوامل الأخرى الطارئة على مجتمع المدينة بعد عام 2011.

إن الظواهر الاجتماعية بتبدلاتها معقدة، ويصعب تفسيرها وقياسها في بعض الأحيان، لذا نودّ التنويه إلى أنّ هذا التقرير محاولة لوصف التحوّل الحاصل في طريقة اللباس، وحصر أسبابه من خلال تحليل دلالاته. يأخذ التقرير بالحسبان أنّ التغيير لا يحدث بفعل عامل واحد بل بتأثير عوامل مجتمعة من الصعب فصلها عن بعضها، إضافة إلى صعوبة عزل التغيرات زمنيًا ومكانيًا لأنها "تحدث على شكل سلسلة متعاقبة ومتصلة أكثر من كونها أزمات وقتية" بحسب أولبرت مور[1]، لذلك سنحاول تقصي العوامل المُدخلة في كل مدة زمنية، بوصفها مسببًا جديدًا، وليس منفردًا، إضافة إلى تتبع الفئات الاجتماعية المتأثرة من دون التوصل إلى خلاصة، عبر الملاحظة في الوقت الحالي، وجمع البيانات بلقاءات ميدانية مع أشخاص محليين ونازحين عايشوا السنوات الماضية.

ومن الواجب التنويه أيضًا إلى أنّ هذا التقرير سيركز على ثياب النساء أكثر، نظرًا لتنوعها الكبير، ولما تشير إليه المرأة بصفتها فردًا في المجتمع من دلالات دينية وفكرية في المجتمعات الشرقية.

(1) محمد الدقس، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، (عَمّان: دار المجدلاوي، 1987م).

سلَميّة قبل عام 2011

تقع مدينة سلَميّة وسط سورية على بعد ثلاثين كيلومترًا شرقي مدينة حماة، وتعد من أبرز مناطق تمركز الطائفة الإسماعيلية في العالم.

سكنت سلَميّة الحديثة منذ حوالى قرن ونصف أغلبية إسماعيلية وأقلية سنية، ثم شهدت المدينة نزوح مجموعات مختلفة، بينها الشركس الذين طردتهم روسيا من القوقاز إلى الأناضول، ثم طردتهم الدولة العثمانية إلى بلاد الشام مطلع القرن العشرين، والقدامسة الذين وفدوا إلى سَلَميّة بعد احتلال فرنسا القدموس عام 1920، والصناع الحمويون الذين استوطنوا المدينة بهدف العمل على دفعات منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، والحمويون الذين هربوا من مجازر الأسد الأب في الثمانينيات، إضافة إلى توطّن عائلات ذوات أصول بدوية وأخرى علوية من حمص والساحل السوري.

شكل السكان الأصليون والوافدون مزيجًا اجتماعيًا متنوعًا ومتعايشًا، وتجمع الحمويون والقدامسة في حيين سُمّيا باسمهما، وحقق بعضهم نجاحًا واضحًا في بعض الحرف لدرجة ارتبطت فيها الحرفة باسم العائلة المحترفة، في حين سكن البدو حيًا يدعى "حارة العرب"، وسكن العلوية منطقة "ضهر المغر".

سمات اللباس قبل عام 2011

لم تسجل أي خلافات جذريّة بين المكونات الاجتماعية المتنوعة في سلَميّة، وحافظ كل مكون على سماته الثقافية والدينية خصوصًا في ما يتعلق باللباس، إلا أنّ لباس بعض العائلات السنيّة قد تصبّغ بالانفتاح، فلم يكن غريبًا أن تكون بعض النساء محجبات وأخريات مكشوفات الرأس في العائلة الواحدة، كما احتفظت نساء عدة بحجابهن مع ارتداء سروال/ بنطال عادي وسترة قصيرة.

مر اللباس السائد في سلَميّة بتبدلات كبيرة أبرزها ما ورد لدى الباحث محمود أمين في كتاب "سلَميّة في خمسين قرنًا": "الشيء المميز لريف سلَميّة عن المدينة أن الحجاب لم يدخل الريف إطلاقًا، وحتى في المدينة نفسها كان الحجاب أبعد عن المرأة إلا في نطاق ضيق جدًا ولفترة قصيرة، وسرعان ما عادت المرأة في سلَميّة إلى سفورها المحتشم"[2].

اتسم اللباس إذًا حتى عام 2011 بطابع متنوع أقرب للانفتاح، لم يختفِ غطاء الرأس (القمطة والإيشارب) كليًا من لباس النساء وخاصة المسنات، لكن المرأة بدأت تواكب الموضة المتغيرة في العواصم الكبرى، وترتدي البنطال والقميص منذ خمسينيات القرن الماضي. إلا أنّ هذا الانفتاح الأوليّ لم يمنع وجود تعريف محلي غير معلن لما هو محتشم، إذ كان ظهور السروال الضيق (الفيزون) مثلًا مستهجنًا في التسعينيات، ولم يكن السروال القصير (الشورت) أو القميص من دون أكمام مألوفًا بين النساء إلا في السهرات والأعراس، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الثياب التي تكشف منطقة الصدر، فقد كانت مستهجنة حتى في الأعراس. في المقابل، لم يكن النقاب بدوره مألوفًا بين النساء على الإطلاق، وكانت المحال التجارية المتخصصة ببيع الحجابات قليلة حتى تلك المدة. وتجدر الإشارة إلى أنه حتى عام 2011 كان السروال القصير أو السراويل التي تواكب موضات معاصرة مثل تلك الممزقة

(2) محمود أمين، سلمية في خمسين قرنًا، (دمشق: مطبعة كرم، 1983م).

أو بألوان عصرية غير مألوفة بين الرجال أيضًا.

1 صورة من سلمية في التسعينيات

2 صورة من سلمية في الثمانينيات

عوامل التغير الاجتماعي في سلَميّة منذ عام 2011

مع اندلاع الثورة في سورية، انبثق عدد من العوامل التي تعد مدخلات حديثة على المجتمع السلمونيّ، والتي أسهمت مجتمعة في تغيير اللباس باتجاهات مختلفة، وأهمها:

الحدث والفعل الثوري: أحد أبرز مفرزات الثورات إلى جانب السعي نحو التغيير السياسي هو التغيير الكبير والحتمي في البنى الاجتماعية. يتجلى هذا التغيير بطرق مختلفة، لكن من المؤكد أنه يتسم بكونه متسارعًا، وقد يكون جذريًا في بعض النواحي والأعراف الاجتماعية، إذ إن الثوّار المنخرطين في الفعل الثوري يخضعون إلى عوامل متجددة تحثّهم في معظم الأحيان على الانفتاح والتفكير بالقضايا الكبرى بعيدًا أو تلك الأساسية للعيش، فتغدو الأمور التنظيمية والكمالية، وقد يندرج اللباس ضمنها، من الثانويات.

الحرب: شهدت مدينة سلَميّة مثل غيرها من المدن السورية، وإن كان بدرجة أقل، قصفًا وخطفًا واشتباكات وتفجيرات وحواجز أمنية قطعت أوصالها، وأثرت تأثيرًا سريعًا في سلوك المواطنين أفرادًا وجماعات، خصوصًا ما أتى منها متعلقًا بصورة كبيرة بالعامل الاقتصادي.

العامل الاقتصادي: تأثرت سلَميّة بتدهور الوضع المعيشي، خاصة أن غالبية سكانها كانوا من الطبقة الوسطى قبل الحرب، لكن العامل الاقتصادي ظهر جليًا في انهيار الليرة السورية الأخير الذي طحن جميع الفئات.

العامل الإيديولوجي: توسعت ظاهرة التعددية المذهبية والفكرية والدينية والسياسية في المجتمع السلمونيّ، وغدت حقيقة مكرّسة ضمن تركيبته الجديدة. وقد ظهر هذا العامل نتيجة نزوح فئات اجتماعية مختلفة من مناطق عدة إلى سلَميّة، هربًا من القصف والحرب بين الفصائل المعارضة وقوات النظام، أبرزها من حمص وحماة بين عامي 2011 و2012، ومن الرقة بين عامي 2013 و2014، ومن ريف سلَميّة الشرقي عام 2013.

العامل الثقافي: قد يظهر نتيجة "استعارة سمة ثقافية من مجتمع آخر نتيجة الهجرة أو وسائل الاتصال الأخرى"[3]، وهو الذي أفضت عنه موجات النزوح إلى مدينة سلَميّة، وحركة لجوء عدد كبير من أهل المدينة الأصليين إلى دول أوروبية، فهؤلاء قد احتفظوا بالطبع بتواصل وثيق مع من تبقى من أقربائهم في الداخل، فكان لهم بفضل توافر وسائل التواصل الحديثة تأثيرٌ واضحٌ على مجتمعاتهم الأصلية.

العامل الديني: في مدينة سَلَميّة قبل عام 2011، كانت الفئات الدينية، الأصلية والوافدة، قد بلغت حدًا من التعايش السلمي المتوازن في ما بينها. لذا يعد نزوح جماعات دينية يميل أغلبها نحو المحافظة مُدخلًا جديدًا بعد اندلاع الثورة، يضاف إليه التفجيرات المتكررة التي نفذتها جبهة النصرة في المدينة عام 2013، وازدياد وتيرة القصف الشرس المتواصل من قبل داعش بين عامي 2015 و2017.

ميدانيًا

عملنا من خلال الملاحظة وجمع البيانات وبعض اللقاءات على تقصي الفئات المتأثرة على مستوى اللباس نتيجة التغيرات الطارئة بعد عام 2011، واستكشاف نوع التأثر (المحافظة أو الانفتاح) ضمن مراحل زمنية

(3) محمد فرح، ما علم الاجتماع، (الإسكندرية: منشأة المعارف، 1987).

نقسمها بالارتكاز على عوامل فارقة في كل مرحلة قبل انبثاق عامل جديد، ونميّز في كل مرة عددًا من ردود الأفعال المتعلقة باللباس، نوضحها في فئات مختلفة.

تغير اللباس بين عامي 2011 و2015

يعزو بعض الباحثين حركة التغير الاجتماعي إلى عدم الانسجام بين العناصر المكونة للثقافة والمجتمع والذي يؤدي لحدوث صراع بين العناصر الثقافية والاجتماعية، ويؤكد هيغل أن "الصراع هو قانون النمو"[4]، لذا بإمكاننا أن نميز بوضوح تأثير العوامل الدينية والثقافية والإيديولوجية بالإضافة إلى الحرب والثورة في هذه الفترة، التي تبدأ ثم تتكثف فيها موجات النزوح باتجاه سلَميّة. يتعلق تغير الملابس في هذه المدة بالتنافس على المنزلة الاجتماعية في المجتمع الجديد بتقسيماته، إذ يحلل عالم الاجتماع هربرت سبنسر نشوء الملابس تطوريًا، بأنها حالة من التباهي بالفريسة (جلد الحيوان) بعد الصيد[5]، مؤكدًا أنّ "الموضة نشأت تاريخيًا من تقليد من يُعتقد أنهم النخبة، لإبداء الاحترام لهم من جهة، وللمطالبة بالمساواة معهم من جهة أخرى".[6]

ومن الواضح أنّ التغير في مدينة سَلَميّة باختلاف تجلياته قد نتج عن شعور بالتهديد للثقافة والهوية الاجتماعية بسبب العوامل الجديدة التي فرضها واقع الحرب. وعلى سبيل المثال عمد بعض الزعماء إلى التغريب القسري من خلال اللباس، ومن بينهم حافظ الأسد الذي فرض حصارًا على الحجاب في الثمانينيات، وبطرس الأكبر قيصر روسيا الذي منع اللباس الروسي التقليدي في أواخر القرن السابع عشر[7]، فجاءت ردود الأفعال عنيفة تجاه هذا النوع من التغيير الإجباري.

وعليه تنقسم الفئات المتأثرة في مدينة سَلَميّة إلى:

فئة المحليين الذين بالغوا في الاتجاه للانفتاح في الملابس

وهم أولئك الذين حاولوا التباهي بالسيادة لكونهم السكان الأصليين، أو من تشكل لديهم رد فعل إزاء شعورهم بالتهديد الثقافي والأيديولوجي والديني لهويتهم من قبل الفئات الجديدة، وهذا ما عززه النظام السوري بسياسة التخويف من الآخر والفصل بين المناطق، وجبهة النصرة بتنفيذ تفجيري معمل السجاد ومعامل الدفاع عام 2013، ثم بث بيانات طائفية وصفت الضحايا المدنيين بـ«الشبيحة» و«النصيريين الكفرة». وفي هذا السياق تذكر الشابة (ي.ح) حادثة من عام 2013، حين كانت في العشرين من العمر، إذ توجه سؤالًا في مكان عام لسيدة ترتدي ملابس محافظة، فتتجاهلها هذه السيدة، مع الإشارة إلى أن السبب عدم حشمة الشابة من وجهة نظرها. وتؤكد (ي.ح) أنّ ملابسها لم تكن خارجة عن المألوف في المجتمع السلموني، وعلى الرغم من احترامها التنوعَ، وتفهمها الاختلافات الثقافية، وتعاطفها المطلق مع مأساة النازحين، إلا أنّ هذا الموقف حرض لديها شعورًا منبثقًا من استياء «عنصريًا» تجاه السيدة وفكرة التحوير الاجتماعي القسري، فازداد لديها هاجس السعي نحو أن تكون

(4) إمام إمام، المنهج الجدلي عند هيجل، بيروت: دار التنوير، 2007م

(5) Herbert, Essays, The Principles of Sociology, (New York: D. Appleton and company, 1898 Spencer).

(6) Herbert, Essays, Scientific, Political, and Speculative, (New York: D. Appleton and company, 1891 Spencer).

(7) Robinson, James, Readings in European History, (Boston: The Athenaeum Press, 1906)

«حرة بارتداء ما تشاء».

فئة المحليين الذين اتجهوا نحو التحفظ في اللباس

وهم من خافوا من التعرض للأذى أو الإساءة من الفئات الجديدة، وبدا الخوف جليًا بين الموظفات اللواتي بتن يرتدين الحجاب عند اتجاههن للعمل في حمص أو حماة، خاصة مع ازدياد حالات الاختطاف على الطرق. في تلك المرحلة ازداد الحديث عن الخطف بناء على الهوية الدينية، بالتزامن مع اختطاف باص مدرسين من السلامنة على طريق تلول الحمر عام 2012، وإخلاء سبيل معلمتين محجبتين كانتا معهم، والتعرض بالإساءة اللفظية لبقية الإناث غير المحجبات، وروت الصيدلانية العشرينية (ر.ج) التي قدمت امتحان الشهادة الثانوية في تلك المدة، أنّ مراقبة محلية طلبت منها عدم ارتداء قميص بلا أكمام مرة أخرى في القاعة، على الرغم من أنّ هذا النوع من اللباس كان سائدًا في آنذاك.

فئة النازحين الذين بالغوا باللباس المحافظ

وهم من شعروا بالتهديد لهويتهم من قبل السكان المحليين، خاصة مع قمع النظام للأغلبية السنية، وتهجيرهم قسرًا، ومحاولة طمس هويتهم. ولعبت ردود أفعالٍ عنصرية من قبل قلة قليلة من النازحين والمحليين بعد تفجيري جبهة النصرة دورًا مهمًا في تكريس الخوف لدى هؤلاء، إذ شمت بعض الوافدين بالضحايا معتبرين أن مقتلهم «عقاب إلهي»، فقابلهم بعض المحليين بدعوات لطرد النازحين جميعهم، معتبرين إياهم «عملاء للمتطرفين دينيًا».

فئة النازحين الذين اتجهوا نحو الانفتاح

وهم من شعروا بتهديد لقيمتهم الاجتماعية أو الاقتصادية لتحولهم فجأة إلى أقلية في المجتمع الجديد، فحاولوا التماهي معه بمحاكاة مظهر الأكثرية، أو من شعروا فجأة بمقدرة على التحرر من قيود فرضت عليهم قسرًا في مجتمعاتهم الأصلية، فبرزت حالات عدة لوافدات محجبات خلعن الحجاب. في هذه المدة ظل التغيير محصورًا ضمن فئات صغيرة، بحيث لم نشهد توجهات مختلفة ملحوظة، لكنّ من المرجح أن هذه الفئات ستكبر أو تتلاشى بظهور أو تضخم عوامل جديدة في السنوات اللاحقات.

التغير بين عامي 2015 و2019

تعزز التغيير الثقافي والإيديولوجي في هذه المرحلة باختيار بعض الوافدين امتلاك عقارات في مدينة سلَميّة وعدم العودة إلى مناطقهم الأصلية، وباستقرار السلامنة الذين كانوا قد لجؤوا في أول الثورة إلى أوروبا، والذين أخذوا يتأقلمون مع مجتمعاتهم الجديدة، فأسهموا في ازدياد قبول مجتمعهم الأصلي للتحرر والانفتاح. تعرضت سلَميّة بين عامي 2015 و2017 لهجمات متعاقبة وقذائف أودت بحياة العشرات من قبل تنظيم داعش الذي يمثل تيارًا متطرفًا هدد تهديدًا مباشرًا بالإبادة الثقافية والدينية والأيديولوجية

وعليه برزت الفئات المتأثرة بالصورة الآتية:

فئة النازحين الذين تمسكوا باللباس المحافظ

وغدا هؤلاء أكثر قبولًا في المجتمع السلموني، فخصصت متاجر التجميل والقماشيات معظمها قسمًا للمحجبات، وافتُتحت متاجر أخرى جديدة للحجابات، وقل استهجان النقاب.

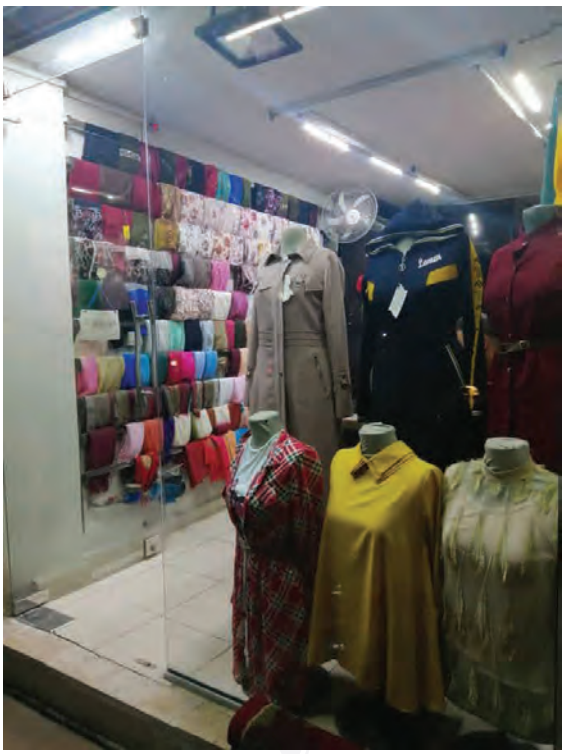

3 متجر حجابات افتتح عام 2015

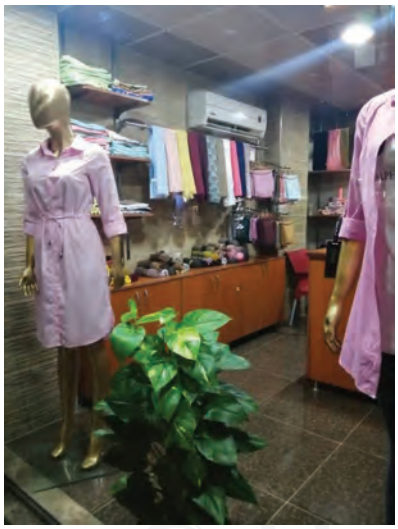

4 زي مدرسي محافظ

فئة النازحين الذين اتجهوا نحو الانفتاح في اللباس

احتفظت بعض الوافدات بحجابهن مع ملابس تواكب الموضة، وبعضهن اخترن خلعه في المناسبات، في حين اختارت أخريات تجنبه نهائيًا، ومن بينهن الشابة (م.ص) من منطقة الخالدية الحمصية التي نزحت إلى سلَميّة عام 2012 بينما كان عمرها عشر سنوات، ثم اشترت عائلتها منزلًا في المدينة، وروت أنّ أختها الأكبر منها تحجبتا في مسقط رأسهما، لكنها رفضت وأختها الأصغر تغطية شعرهما في سلَميّة، مؤكدة أن أهلها وافقوا على ارتباطها بشاب من المدينة، وموضّحة أنها أكثر سعادة في مجتمعها الجديد، لأنه يمنحها حرية الاختيار.

فئة المحليين الذين اتجهوا أكثر نحو الانفتاح في اللباس

إضافة إلى دور اللاجئين في أوروبا، سببت هجمات داعش تغيرًا عنيفًا وسريعًا داخل مجتمع سلَميّة في هذا الاتجاه، في نوع من إثبات الوجود الجمعي في منطقة أقلوية، وحمّل بعضهم الدين مسؤولية المد المتطرف، ونبذوا كل ما يتعلق به حتى اللباس المحافظ. عززت تجربة الاقتراب من الموت بعد الهجمات الاندفاع الغريزي لدى بعضهم لخوض الحياة بأقل قدر ممكن من القيود، ومن بينهم رجل أودى صاروخ بحياة ابنته، فصار أقل تدقيقًا على لباس بناته الأخريات. وبحلول عام 2019، خفتت ردود الأفعال العدائية تجاه الدين، لكن تأثير التغيير في الملابس بات أكثر وضوحًا على نطاق واسع، فصارت الأزياء مثل السروال القصير والقمصان والفساتين المكشوفة مقبولة بين الفتيات والنساء في السهرات والأعراس، كما صارت السراويل التي تتبع صيحات الموضة والتي لم تكن مقبولة سابقًا دارجة بين الرجال.

التغير منذ عام 2019

استمر قبول التغيير الذي طرأ في المدة السابقة، لكنّ نهاية عام 2019 شهدت بداية الانهيار الأكبر لليرة السورية، ليتجه المجتمع بأكمله إلى هموم كبرى في إيجاد طريقة لتأمين لقمة العيش. أدى ذلك إلى عدم الاكتراث بشكل الملابس بل بسعرها، وبتوفيرها أكبر قدر من الفائدة والاستدامة، ما عزز سوق الملابس المستعملة، سواء على أرض الواقع «محلات البالة»، أم عبر مجموعات التواصل الاجتماعي. طغى إذًا العامل الاقتصادي على العوامل الأخرى كلها، لأنه أعاد الناس كائنات بدائية، وكأنها خرجت للتو من الكهف، ليصير الهاجس الأكبر هو المحافظة على الحياة في بلدٍ أنهكتها الحرب على الصعد كافة.

5متجر ألبسة مستعملة 2020